IJHER International Journal of Humanities and Educational Research
ISSN: 2757-5403
Volume 6, Issue 1, February 2024

Received: 09/11/2023 **Accepted:** 07/01/2024 **Published:** 01/02/2024

OPPRESSIVE MECHANICS IN THE NOVEL "TODAY IS FRIDAY AND TOMORROW IS THURSDAY" BY THE NOVELIST SOFIAN RAJAB

Dr. Ala'a Abdul Amir ISSA[1]

Al-Qadisiyah University, Iraq

Dr. Muthanna Mohamed ABDUL HUSSEIN[2]

Al-Karkh University, Iraq

Abstract

The current research selected the novel Today is a Friday and tomorrow is a Thursday by the Tunisian novelist Sofian Rajab as a subject of its study. The selected novel draws attention to the excluded minority in Tunisia, which is a sensitive issue that may face rejection and reprisals from some. The research sought to analyze the content through the narrative construction, and to consider oppression and its mechanisms. This novel is really a multi-layer tale since it has two stories that intersect and intervene for the pivotal character, (Hero/Irella), where both characters seek to be (a revelation) that tells of a religious message, there are as well changes and secondary increases in both, for instance, Irela al-Qamrani could not complete her message, which caused her to be repudiated by the group that sheltered her, so Irilla Al-Malih took it upon herself to preach her ambitions of missionary purposes. By this behavior, she was able to achieve her desires through persuading Moses to implement a number of orders and adapt it to the new situation, It was like Moses's time reported by his message, therefore she was able to change and adapt. This multi-layer narrative that is composed of two paths each specified to one of the two characters, (Irela al-Qamrani and Irela al-Maleh), that are both located inside the narrative tale, (the self of action/Irela al-Qamrani) and (the self of reverse/ Irela al-Maleh), and were made to be separated. The first appears in the middle of the novel, the second dominates all over the narrative until the end, they meet and overlay at the moment of the travels, where they were given the space for confrontation, that spread between reciprocity or conflict, also to regard the relationships of the human structure towards (the conflict of masculinity and femininity, the class conflict, the ...). This text goes beyond the process of defending that oppressed, suppressed and rebuked group, becoming a record that effectively addresses religious

http://dx.doi.org/10.47832/2757-5403.24.18

[1] anur454xc@gmail.com

[2] mohana@kus.edu.iq

dialogue and peaceful coexistence among communities of religious faith and minorities of specific sect, and how it transcends the age-old conflict between religions and sects, and an attempt to demonstrate that all religions are divine and serve humanity. This paper discusses two important themes across two pillars of research: persecution from the other, which is different in its religion, and social support between the two as a reaction to persecution. We introduce a descriptive analytical approach so that we can investigate the manifestations and mechanisms of oppression and support in the selective narrative text and pursue it as we consider it under the microscope of drilling and interpretation.

Key words: The Novel "Today is Friday and Tomorrow is Thursday, Oppressive mechanics, the novelist Sofian Rajab.

الميكانزمات الاضطهادية في رواية "اليوم جمعة وغداً خميس" للروائي سفيان رجب

م.د. آلاء عبد الأمير عيسى السعدي

جامعة القادسية، العراق

د. مثنى محمد عبد الحسين

جامعة الكرخ، العراق

الملخص

انتخب البحث رواية "اليوم جمعة وغداً خميس" للروائي التونسي سفيان رجب، مادة للدراسة، إذ سلطت النظر على الأقلية اليهودية المقصية في تونس، وهذه الموضوعة حساسة وقد تلاقي رفضاً وصدوداً عن البعض. سعى البحث لتحليل المضمون من خلال البناء السردي، والوقوف على ماهية الاضطهاد وآلياته. إن هذه الرواية هي في الحقيقة حكاية مضاعفة لأنها تحتوي على حكايتين تتقاطعان وتتدخلان لذات الشخصية المحورية(البطل/ إيريلا) وكلاهما يسعيان أن تكونا (وحياً) مبلغاً لرسالة دينية، وهناك زيادات ثانوية ومتغيرة في كليهما، فإيريلا القمرانية لم تستطع إكمال تبليغ رسالتها، فتعرضت للنبذ من قبل مجموعتها التي آوتها، وأخذت إيريلا المالح على عاتقها التبشير بما تطمح له من مقاصد رسالية، ومقارنة بسلوكها استطاعت أن تحقق مبتغاها من خلال إقناع موسى بتنفيذ جملة من الأوامر وتكييفه مع الوضع الجديد، وكأنه موسى زمانه المبلغ برسالته، فكانت قادرة على التغيير والتكييف، وتفرض هذه المضاعفة السردية المكونة من مسارين سرديين خاصين بكل واحد من الذاتين(إيريلا القمرانية، وإيريلا المالح) الموجودتين داخل الحكاية السردية(ذات الفعل/إيريلا القمرانية) و(ذات المضاد/إيريلا المالح) الموجودتين داخل الرواية، وعمد الروائي لأن يجريهما منفصلين، الأولى تتمظهر في منتصف الرواية، والثانية تهيمن على جميع الرواية حتى نهاية السرد، والتقيا وتراكبا في لحظة أخذ الأسفار، وأعطيا مجالاً للمواجهة بين الذوات، فتوزعت بين تبادلية أو تنازعية، وتارة أخرى تبادل فصورت لنا علاقات البنية الإنسانية نحو (صراع الذكورة والأنوثة، وصراع الطبقات، والصراع الإثني...). وتجاوز هذا النص عملية الدفاع عن تلك الفئة المضطهدة والمقموعة والمعنفة، فهي مدونة تعالج تطبيقياً حوار الأديان والتعايش السلمي بين الطوائف والأديان والأقليات، وكيف تجاوز هذا الصراع الأزلي بين الأديان والطوائف، ومحاولة لإثبات أن الأديان جميعها سماوية تخدم الإنسانية. فراحت تناقش هذه الورقة البحثية ثيمتين مهمتين عبر محورين يقوم عليهما البحث هما: الاضطهاد الحاصل من الآخر المختلف عقدياً مع اليهود، والتساند الاجتماعي الواقع بينهم كرد فعل على الاضطهاد. نعمد إلى المنهج التحليلي الواصف ليتسنى لنا تقصي تمظهرات وآليات الاضطهاد والتساند في النص الروائي وملاحقته ووضعه تحت مجهر الحفر والتأويل.

الكلمات المفتاحية: الاضطهاد، التسامح، الفصل العنصري، التعايش السلمي، الاستبعاد، النص الروائي.

المقدمة

نهدف إلى وضع فكرة (الإقصاء، الاستبعاد، الاضطهاد...) موضع شك في الوقت الذي تم الإدعاء فيه بأن هناك (حوار للأديان، والتسامح، والتعايش السلمي، والتحاور الاجتماعي...) محاولة لاستبصار هذه العلاقات في هذا النص الروائي المرشح للدراسة، ولأنه استدعى الأديان بمجملها ولأزمان مختلفة كونها من منبع واحد هو الله سبحانه وتعالى، يهدف إلى تبيان السرود التاريخية بوصفها نوعاً من الاستعمار الثقافي للعقول، إذ قدم بعضها فكراً مضللاً أو مفضلاً أو مقصياً...، وعلى الرغم من وجود أسباب مؤسسية دينية ثقافية. رسخت وهيمنت لفكرة الإسلام هو الفكر الديني الأصح والخاتم للأديان كلها، فكان هو الأكمل والأشمل وأضاف ما هو جديد للسابق[i]، بيد أن هذه الأفضلية أُستغلت من البعض فوقدت أفكاراً مضطهدة مبعدة مقصية للأديان الأخرى السابقة إلى الإسلام، مما تبعها أثار سلبية لاحقتها وطالت المعتقدين بها، وحدث للأقليات ما حدث من اضطهاد وإقصاء وتهميش واستبعاد، وجرى عليهم ما جرى من تغييب وتهجير ومذابح في المجتمعات الغربية والعربية.

أتت هذه المدونة السردية لتنأى بنفسها عن طرح فكرة الأصح والأفضلية والشمولية، فتحاول أن تزيح عما يعانيه اليهود وتسييقهم في النص والواقع كجزء أساسي في المجتمع، لقد كان للرواية شأن في ذلك شأن الخطابات الحجاجية الأخرى، وإعادة النظر في الأقليات ومناقشة آليات تهميشهم واضطهادهم تحت ما يسمى بالإبادة والتهجير والترحيل القسري السياسي، فيحاول الروائي أن يعود إلى التاريخ وكيفية تشكله المؤدلج وانعطافته المؤدلجة ضدهم. فوجهت الرواية القارئ لمصادر التغيير السردي لصالح ترفيع الذات من دون الانتباه إلى إيديولوجية الذات وتوجهها الديني، وما يلحقها من أثار ملموسة لهذه الأفضلية والانحياز الديني، فالنص بوصفه خطاباً فنياً لا يحاول تكذيب الذات بقدر ما هو حوار وكشف للمغالطات الحادثة بين الأديان والطوائف والأقليات، وكيف استبدت الأغلبية اجتماعياً وهي تتعكز على الأفضلية والشمولية، وكيف أثر الاعتراف بهذه الموروثات الدينية على التعايش السلمي والتحاور الاجتماعي، والعودة إلى الماضي/التاريخ، بالنسبة للسرديات الاجتماعية شيئاً أكثر من مجرد رأي للولاء الديني والسياسي، شيئاً أشبه ما يكون بتعرية للأيديولوجية. فجاءت مدونة الروائي كفعل مناهض للاضطهاد، بعد هيمنته واستفحاله البارز على مدى أزمان طويلة، ولاسيما تكرر معهم القسوة والاضطهاد في كل مكان يعيشون به اليهود، واشترك الكثير في اضطهادهم، وارتفعت أصواتهم بالشكوى مما سموه ظلماً واضطهاداً، وحاولوا مراراً وتكراراً أن يبرزوا للعالم ما نزل بهم من ضيم وعدوان[ii]، وفي المقابل هناك دعوات معاصرة أخرى للمطالبة بحقوق الأقلية والمساواة وحقوق الإنسان والتعايش السلمي، فاختلفت الدعوات من المطالب الواقعية إلى الفنون، ومنها "فن الرواية"، ليؤكد من خلالها هذه الدعوات والمطالبات بأنها فنون تشاركية وليست فنون وحسب، بل ممكن أن تشتغل على رؤى سياسية ودينية بيئية وغيرها، فهي على تماس مع جميع العلاقات الفعالة في تغيير العالم. ليست الرواية فناً متجرداً خالياً من أية خطوة باتجاه الحرية والتعايش السلمي، بما أن الاضطهاد ثقافة مرتبطة بالعنف، فعادة ما تخالطه مشاعر الألم والحزن، وتتجلى تلك المشاعر بأفضل صورها في التراجيديا، وبما أن الرواية جنساً أدبياً ذا صلة بفن التراجيديا، فمن الطبيعي أن يكون هذا الجنس الأدبي وقاداً بمواضيع الاضطهاد والعنف والإقصاء وغيرها، فضلاً عما تحتويه من شخصيات سردية مُيزت بقوة أرادتها لمواجهة الأزمات، وتمكنها من تجاوز وتحدي المصاعب والمحن، ولاسيما المحورية منها، مما يجعل النص قادراً على الفصح عن التطور في الناحية النفسية لدى الشخصية السردية أثناء مواجهتها لأزمات الحياة المعيشية من قبلها، كما يحدث لبطل التراجيديا[iii]. وأعلن الروائي في نصه هذا عن موقفه كبيان لأن يكون الفن مسؤولاً حول الإمكانات التي يحملها فن الرواية أسوة بالفنون الأخرى.

محايثة مفاهيمية

لابد من التعريج بالذكر على الإطار المفاهيمي الخاص بالعنوان المخصوص بالبحث والدراسة (الاضطهاد)، تمت متابعته، ووجدناه يسير في مسار التنوع والتعدد المفاهيمي المفسر لهذا السلوك اللا إنساني، مما يجعل الباحث أمام تعددية مفاهيمية تحد من حريته في إعطاء معنى جامع شامل، وبسبب تعدد أشكاله وحيثياته ونتائجه، ولكننا يمكن أن نجنح إلى تقريب مفاهيمي ملخص له، فهو مجموعة أفعال سيئة تعتبر جريمة بحق الإنسانية، وتكون ذات طبيعة اقتصادية بدنية أو قانونية بسبب اللون أو الشكل أو الأصل بصورة اضطهادية لتهميش فئة أخرى، وقام الاضطهاد على أركان منها(البشري، والمادي، والمعنوي)، واتخذ صور عدة، تختلف باختلاف الأوضاع فيأتي على شكل "تمييز عنصري" تارة و "فصل عنصري" تارة أخرى، لذا تنوعت تصنيفات الاضطهاد، فتعاني المجموعات اضطهاداً سياسياً، دينياً، عرقياً[iv]. والمضطهدون منبوذون وهم الفئة الرئيسية للنفايات البشرية الموضوعة في سياق الإنتاج الحديث للعوالم ذات السيادة المنظمة، فهي تلتزم بالقانون وتأتمر بأمره، فتارة تدافع هذه القوى العالمية عن دول بدون شعوب، ومن جهة أخرى تقمع الأشخاص الذين لا دولة لهم نحو "الأرمن والفلسطينيين ويهود الشتات"، وإبادتهم من دون عقاب، فمصير هذه الشعوب لا يتحدد بهوية دولة ومفهوم الشعب لا معنى له ما لم يعاد تدوينه ضمن مفهوم المواطنة[v]. فتعلق الأمر هنا بتصميم أشكال التعايش البشري، فأن النفايات هي البشر، كون بعضهم لا يتناسبون مع الشكل المصمم ولا يمكن دمجهم فيه، فيحاول المصمم تغييبها أو محوها، ليصبح أكثر اتساقاً، وأكثر أماناً وأكثر سلاماً مع نفسه. تحاول الدول أن تبني نظاماً وهو اصطلاح أُطلق على الأشكال الجديدة والمحسنة للتعايش البشري، وهذا الفضاء المنظم مساحة تحكمها القواعد[vi]. وتولد الاضطهاد حصيلة توجهات منظمة من قبل حكومات ودول وإمبراطوريات وحكَّام سببه في الأغلب إيديولوجي تارة، أو حاصل من أفراد وجماعات أو مؤسسات أو دول ذات صبغة دينية، وهو اضطهاد أصولي النزعة، فيقع بدوافع نصوص دينية بمحمولات ومدلولات نصوصية خاصة بإخراجهم ونبذهم والابتعاد عنهم تارة أخرى، فيتم تسخير وتوجيه هذه النصوص لتجريم ونبذ وإقصاء الفئات، والوضع الماضوي الطافح في تلك النصوص يمنحها مصداقية مستقبلية في التعامل معهم[vii]. وهذه الطرق والمبادرات المؤطرة بالقانون والدين أحياناً، توحي إلى فوضى التعامل، فيدرج هؤلاء المستثنين من خلال انسحابه عليهم، ورسم الحدود لتطبيقه، فخلق بالطريقة نفسها فئة شاملة من المستثنين أو المستبعدين، أو المهمشين، ووضعهم خارج الحدود، وبالتالي وفر للمستبعدين مدفناً وإعادة تدويرهم مع النفايات البشرية[viii].

أركان الاضطهاد باعتباره جريمة تتمثل في ثلاثة أركان أهمها:

1.الركن البشري: حيث توجد نصوص تمثل الركن الشرعي في القوانين والاتفاقيات الدولية والوطنية، تحرم الاضطهاد والشتم وكل ما يولد البغضاء في المجتمع أو أي سلوك يمس الدين.

2.الركن المادي: وهي الأفعال التي تمارس ضد الإنسان من قبل الدولة أو أحد مؤسساتها أو حتى شخص آخر؛ بقصد المساس بشعور أو التقليل من شأن شخصٍ ما.

3.الركن المعنوي: وهو وجود القصد الجنائي والنتيجة، إضافة لدوافع هذا الفعل حيث تكون الإساءة مقصودة ضد شعب أو شخص معين بسبب اللون أو الجنس أو العرق[ix].

تحرك الشخص المُضْطهد ثلاثة عوامل، هي الفهم الخاطئ، والعنف الكامن غير المهذب، والكبرياء وهي سلسلة متشابكة، فالفهم الخاطئ قائم على التمييز الإنساني إلى أعداد وأتباع حسب المعتقد، مما يّولد الكبرياء القَبَلي/العرقي/الديني، ويتم تفريغه من خلال العنف اللفظي أو البدني، ويتمظهر في التعليم الخاطئ الاستدلال بالتاريخ أو التقوقع فيه، وتجري المحاولات لإخلائه من سياقاته، ليبقى أحداثاً متناثرة موجه لخدمة الفكر الأصولي المدعم بنصوص منتقاة لتأمين النفس ضد الضمير، وبهذا يتحرك القادة الأصوليين على حس النوستالجيا(الحنين إلى الماضي) الكامن في النفس الإنسانية والمتولد من كثرة الحديث والتباهي بأمجاد الماضي وانفراد لوائه المرفرف على تلّة التاريخ[x].

تختلف **صور الاضطهاد** تبعا للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في كل مكان، فيتمثل في:

1.التمييز العنصري: وهو كل فعل يقوم على التمييز أو الاستعباد أو الاستثناء على أساس العرق أو اللون أو الأصل القومي أو الإثني بهدف، تعطيل الاعتراف بحقوق الإنسان أو التمتع بها بشكلٍ متساوٍ مع الآخرين؛ بهدف الهيمنة على الفرد أو الجماعة.

2.الفصل العنصري: يعتبر سياسة تمييزية تمنع جماعة سكانية من حقها في المشاركة السياسية أو الاقتصادية أو الثقافية بقصد سيطرة جماعة عنصرية معينة، واضطهادها بصورة منهجية بإنكار حق الحياة؛ بهدف فناء تلك الجماعة، ويتخذ أحياناً شكل فصل المناطق السكنية بين الجماعات وحظر الزواج بينهم[xi].

لقد تم تصنيف **أنواع الاضطهاد** في ثلاثة نقاط وهي:

1.الاضطهاد السياسي: يتلخص في قيام الحكومة باتخاذ إجراءات قمعية؛ بقصد فرض سياستها على المواطنين والقضاء على حركات المعارضة، أو التخلص من بعض المواطنين المعتنقين لأفكار سياسية تتناقض مع متبنيات الحكومة السياسية أو الفكرية مثل المثقفين أو البرجوازيين، والسبب الكامن من وراء ذلك؛ هو عدم وجود نظام فعال يوازن بين السلطة والمجتمع.

2.الاضطهاد الديني: ويعد أحد أهم مشاكل حقوق الإنسان في العالم، ويعني سوء المعاملة المُمنهجة ضد فرد أو جماعة من الأفراد؛ بسبب معتقداتهم أو طوائفهم الدينية.

3.الاضطهاد العرقي: كل تمييز أو سوء المعاملة بين الأشخاص بسبب العرق أو اللون أو الأصل[xii].

آليات الاضطهاد في رواية "اليوم جمعة وغداً خميس"

على وفق ما تم بسطه عن المفهوم، وتجلى للقارئ الإطار النظري للاضطهاد بوصفه أحد القضايا المهمة والمستشرية التي تعاني منها أغلب الطوائف والأقليات والهامش في جميع البلدان، بيد أن الأقلية اليهودية ذاقت الويلات في جميع بلدان العالم. سنعرض مادة البحث من هذا النص المنتقى كمتن للتحليل، لنسلط الضوء عليهم ولاسيما في تونس، نعم هناك أقليات أخرى مازالت قابعة تحت الهيمنة والاستبداد والظلم، وحتى الأغلبية تعاني اضطهاداً لكن هذا "لا يعني ذلك أننا صرنا لا نصغي لانشغالاتنا بمصائب غيرنا من الناس، أو بالحالة المزرية للكوكب، أو كففنا عن الحديث

عن هذه المخاوف. كما لم نتوقف عن الإعلان عن اســتعدادنا للعمل دفاعاً عن المضــطهدين، وكذلك لحماية الكوكب الذي يشــاركوننا ســكناه"[xiii]. فلابد من بغض العنف والألم والمعاناة التي تتعرض لها تلك الفئات ولو عبر فن الرواية وغيرها من الفنون. وإن كان من الأجدر فتح باباً للحوار والتسامح، وفتح باباً لوجود الرأي المخالف، وقبول التعددية؟ بيد أن ذلك يصعب الإمساك به، وهذا ما لم نلمس مصاديقه على أرض الواقع المعاش، مما زاد الطين بلة، فتحول إلى صراع وإكراه، والترويج للفكر الواحدي الذي لا يقبل التعددية[xiv]. فتنوعت تمظهرات الاضــطهاد وآلياته، ومعاناتهم وهيمنة الأقليات الأخرى عليهم لتزداد معاناتهم أكثر فأكثر.

بان النص الروائي عن القيود المسورة لتلك الأقلية، وهم يعيشون تحت سطوة المعوقات التي تحد من حركتهم وتفاعلهم مع المحيط الاجتماعي، فتترك أثارها وتدمغ على نفسياتهم وسلوكياتهم ونشاطاتهم التي تحكم بما هو بيئوي مسـيس، ولا يمكنهم أن يتنصــلوا من بيئاتهم أو يتخطوا الحدود الاجتماعية والحواجز الأخرى أو يتعايشــوا مع الآخرين المختلفين.

لقد مر اليهود بفترات متذبذبة بين الرفض والقبول، بيد أن أســوأ الفترات التاريخية لليهود هي من القرن الثاني عشرــ حتى أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي، ووجهت ضربات لليهود في مناطق كثيرة من العالم الغربي والعربي، وأجبروا من قبل سـلطات دول مختلفة على السـكن في حي معين(غيتو) أو يطلق عليها"حارة اليهود"، وحرموا من ملكية الأراضي الزراعية، فهو من أهم ما تم استخدامه من أمر اضطهادي جعلهم في مكان بيئوي واحد، بغية عزلهم وتحجيمهم، وإقصائهم، فيسكن اليهود بوجه عام في المدن، إذن هي مواقف تتبنى كجزء من قوى مترابطة تستهدف مجموعة معينة من الناس[xv].

لقد تنوعت الغيتوهات وربما تكون تقليدية، تتمثل بوصفها حاويات محاطة بحواجز يصعب التغلب عليها ولا يمكن تجاوزها، حتى لو كانت غير مادية، (مادية واجتماعية) مع وجود مخارج قليلة متبقية يصعب التفاوض عليها. وربما كانت أدوات للفصــل بين الطبقات والطوائف وربما وصــفوا ســكانها بوصــمة الدونية والرفض الاجتماعي، فهذا الغيتو التقليدي أو الكلاسيكي بلحاظ شكله الجزئي يعد درعاً واقياً من الإقصاء العنصري الوحشي، علاوة على ذلك الغيتوهات الطوعية بالمجتمعات المســورة، والغيتوهات المفرطة تفقد دورها الإيجابي بوصــفها حاجزاً جماعياً، فتتحول إلى آلية مميتة للاســتبعاد الاجتماعي الســافر[xvi]. هكذا صــار الغيتو اليهودي في تونس طرفاً في التخلص من النفايات البشــرية، وتحولت لآلية ذات بعد واحد تجتهد للاســتبعاد الســافر، ومُيّزت مدينتا "جربة وســوســة" بوصــفها مســتودعاً بشــرياً يتخلصون فيه من تلك الطوائف التي تعد مهمشة ومهملة وخطيرة بوجودها اجتماعياً مع شرائح المجتمع الأخرى.

سرد الروائي سـلسـلة من الآليات المتوازية الاضـطهادية التي تقرب تلك الغيتوهات من نموذج شـبيه بالسـجن، كونها أماكن احتجازية ومسـتودعات عازلة تتغيا الفصـل والتمييز العنصـري. فهذا الحجز والعزل يضـطهدهم ويحد من تفاعلهم مع الآخر، إن هذا الحاجز المديني أو المناطقي امتلك معنى الســجن أو الجدار المادي له، فهي مناطق لا تفتح أبوابها لمن هو خارج ملتهم أو طائفتهم، بل لا تســمح للتعايش مع من هو مؤتلف عقدياً. وإذا ما ولجنا إلى نص منتخب سـيضـع القارئ على حقيقة تلك الغيتوهات بجانبها السـلبي/الاضـطهادي الإقصـائي وهو الوجه البارز لها، وصـف السـارد البيت الذي تسكنه عائلة المالح في "المدينة العتيقة"، قائلاً: "**سبعة عشر شخصا في باحة بيت قديم تخنقها الرطوبة والأنفاس الثقيلة، وعتمة خافتة تنهشـها الشـموع التي أشـعلتها العجوز أديرا.**"[xvii]، يحكي هذا النص عن مكان العيش

والإقامة لهذه العائلة اليهودية، ويوحي لقارئه بقدم المكان والخنق والظلام، فيتحول كأنه مكان قديم مهجور نهشه الماضي، غير صالح للسكن، لكن الحجز والعزل والتعلق بالحي اضطرهم للسكن فيه.

ومن ثم انتقل السارد للكشف عن ماهوية العلاقة بين الأفراد اليهود بالمكان "تونس"، وماهوية منظار الدولة لهم كأفراد ضمن محيطهم الاجتماعي، فـ"**يرى موسى أن العلاقة بينه وبين تونس تحكمها الريب والهواجس، فهو يرى أنها تتعامل معه مثل زوجة الأب، وهو يتعامل معها مثل ابنها المتبنّى. ورغم هذه العلاقة الباردة، فهو يحبها. ويعرف أنها تختبئ له قسطا من الحنان في قلبها الأخضر الكبير**"[xviii]، فصح النص عن علاقتين متناقضتين، الأولى: التعامل الاضطهادي الإقصائي الصادر من الدولة تجاه اليهود، معاملة تسودها (القسوة)، وفي المقابل هناك علاقة أخرى ملؤها الحب صادرة من اليهود تجاه دولتهم، ولكنه يعلل النفس بما تخبئه تلك الدولة لأفرادها اليهود من حب غير معلن لهم، لم تعبأ الذات"موسى" ولم تسر خلف تلك المعاملة الاضطهادية الناقمة منهم لتحابيهم على أفعالهم، بل حفز ذاته بالحب والحنان تجاههم. وقد يدور في الخلد استفهاماً عن سر تناقض العلاقتين، (القسوة، والحب)(التودد، والتنصل)؟ لِمَ كانت وما تزال النظرة إلى الأقلية اليهودية تحمل خوفاً من قبل السلطة السياسية والمدنية؟ وما الذي دفع اليهود إلى هذه النظرة الاستشرافية المستقبلية لدولتهم في ظل هذا الصراع والتهميش؟ فما نما وسرى إلى المسامع عن تهجير وترويع وترحيل وإبادة وتشديد، يميل إلى الشعور والإحساس بخطورة تلك الأقلية، فما الداعي من هذا التعامل الاضطهادي العنفي الذي يفوق ما اتهموا به؟

إن الإشكالية اليهودية تحولت إلى ديانة دوجماطيقية قائمة على نصوص مدونة هي عينها العقيدة المستندة إلى عقائد مكتوبة دون الإيمان بنسبية اللغة التي تقدم على متنها العقيدة، وقام الإيمان اليهودي بالأساس على انتظار المسيا، أي أنه إيمان يترقب المستقبل للاكتمال، فتحولت إلى قوقعة صلبة ترفض مياه جدة الحياة والتغيير، وإن كانت المسيا عينه، ذاك الذي ينتظرونه هو الآخروية اليهودية متوقفة على امتلاك الأرض وعودة شعب الله المختار لحلم كنعان الموعودة، وظهور المخلص فهي آخروية زمنية فقط. ينقلنا الحوار الخارجي بين العم إيلي وموسى إلى هذا التصور، فيستفهم موسى قائلاً: " ـــ **هل تتصور أن إسرائيل ستكون من النيل إلى الفرات؟ إسرائيل ستحكم العالم، وستكون مهمة الأشخاص الذين اختارهم الله خارج إسرائيل لا داخلها. بعد ذلك سيعم السلام الأرض وسكانها.**"[xix].

يفضي الحوار الخارجي إلى أحد التصورات المهمة لليهود هو الحكم/السلطة، لقيادة العالم بغض النظر عن نوعية الحكم: "عسكرياً، أو الحرب الناعمة/الباردة، أو غزواً فكريا/ ثقافيا/ اقتصادياً..."، ولذا يسعون لبذل الجهود في منع تسلط باقي الأمم عليهم، وتحتكر السلطة لوحدهم، وما لم تكن لهم ستكون عدواً لهم، وسيعيشون حياة مضطهدة وبين النفي والأسر، فتتعلق طموحاتهم بها، بغية تحويل وتوسيع مهامهم خارج إسرائيل ليعم السلام من وجهة نظرهم[xx]. كما شكّلت تركة المدونات مصدراً إعلامياً تخبر القراء بماضيهم وتحثهم على أقامة الدولة وتعبئتهم بأفكار أخرى، ويؤمن بها الكثير وبما يصدر من خطابات مؤدلجة أخرى، ومن ثم توصيهم بالصبر على المصائب والمحن والتحمل لما حلّ وسيحلّ بهم، فينقلنا السارد للحوار الخارجي بين العم وموسى، قائلاً: "**الكتب أخبرتنا بذلك، وأوصتنا بالصبر على مصابنا.(...)، كان ذلك بحكمة من الله، فهو الذي وضع القسوة في قلب فرعون، ليتم برهانه لشعبه المختار، وليمتحن صبرهم على الألم. وكذلك فعل العرب والنازيين الذين أذلوا أجدادنا وأهانوهم، إن الله وضع القسوة في قلوب العرب والنازيين، ليمتحن صبر شعبه المختار. لا شيء مجاني يا أبت..**"[xxi].

لعب التحيز الديني والسياسي والثقافي دوراً في الطريقة التي عاملت بها الحكومة التونسية الأقلية اليهودية، بل أنها لعبت دوراً في خلق فجوة كبيرة بين أبناء الوطن الواحد، ولا نغفل ما تركه هذا التعامل في نفوسهم من اغتراب كبير، يظهر الزمن الاسترجاعي علاقة موسى بوطنه، لينقلنا إلى شعور وإحساس الاغتراب الذي يعتمل النفوس إزاء التمييز الديني، فيسرد الراوي قائلاً: **"حين يعود موسى إلى تاريخ وطنه المتقرح، يجد أكثر من سبب يبصق على وجهه، ويقول له: ارحل، وهذا ليس وطنك. هو لا يثق فيك أبدا، ولا يحسبك جنديا على حدوده. اليهود والنساء معفيون من الخدمة العسكرية في تونس. هكذا قال له الضابط في ثكنة سوسة يوم ذهب لتقديم نفسه للجندية"**[xxii]، وظف الروائي تقنية الاسترجاع الخارجي كإنارة لماضي الشخصية مع الوطن، وتنير له عن الأسباب التي جعلت ذاكرته متقرحة، وكيف كانت الحكومة تعفي الجنسين من الخدمة، وهذا الإعفاء ناتج عن اضطهاد وعدم اهتمام الحكومة بهم، ولشعورهم بعدم كفاءة هذه الأقلية، لذلك لم ينظر لهم بنظرة مهمة، فقدم خلاصة لحوادث الماضي الممهورة بالفعل الاضطهادي والتمييز، وقدم مشاهد قابعة في ذاكرته، يحاول نسيانها لكنه: **"لم يشأ أن يعود به شريط الذاكرة إلى الماضي، يرى فيه أمه تترجى أباه أن يكون لهما صبي آخر يؤنس ولدهما، أو يهاجرا إلى فرنسا أو إسرائيل حيث هاجر أغلب جيرانهما اليهود، لم يشأ أن يضيف إلى كأس الشاي دموعاً أخرى."**[xxiii]، جاءت مقاطع الاسترجاع الخارجي لخدمة "موسى" وتبرير موقفه وعلاقته المتوترة بوطنه، فسرد هذا النص آليات اضطهادية أخرى تضاف إلى الآليات القديمة، هي الهجرة من تونس إلى إسرائيل أو بلدان أخرى تأويهم، ومحاولة تقليل الإنجاب خشية عليهم مما سيقع بهم في تقادم الأيام والسنين، وما سيفتك بهم، ففي نص آخر يطلعنا على النظر لليهود الأمازيغ، فقال السارد: **"نحن اليهود الأمازيغ محتقرون من يهود الشرق ويهود الأندلس ويهود القرانة، وهم محتقرون من المسلمين. نحن في أضيق دائرة من دوائر المحتقرين في هذه البلاد"**[xxiv]، يتيح النص لقارئه كشف صلة التعصب الديني الأعمى والاضطهاد السياسي، وهذا مقرون بعلاقة الحاكم بالمحكوم وعدم تناظر القوة بينهما، فمن الطبيعي يتولد عن هذا الاحتقار والتعامل الدوني معهم، ويبعث فيهم الإحساس الحاد في البحث عن الهوية والتقابل بينهما، لأن هذا التحيز يشير إلى فشل علاقة الحكومة بالمواطن وفشل سياستهم المتسلطة من جهة، ومن جهة أخرى تصاب هذه الأقلية بالإحباط بسبب الإدارة السيئة، مما تركت أثراً واضحاً على نفسياتهم، فيجدون أنفسهم في أضعف دائرة من الاحتقار.

وبإمكان القارئ أن يجد في غيتو مدينتي(جربة، أو سوسة) حدوداً وجدراناً تجاوزت معنى الحصر والحد والتقييد بقدر ما هي حماية لهم من التهديد المحدق بهم، فتنوعت الحدود والفواصل العازلة للتعايش معهم، ونكون إزاء نصاً يكشف عن هذا الفصل الاضطهادي بوصفه حماية لهم، فيسرد الروائي، كيف:**"خرجت إيريلا برفقة بوران وإيليوارا، إلى الحارة الكبيرة، كان الهدوء يلف الأزقة، وكان يعترضهن بعض سكان الحارة الكبيرة، فيُلقين عليهن التحية. وكانت بوران دليلتهما في الحارة(...) هذا بيت يسكنه مسلم، وهذا بيت يسكنه يهودي. وكلنا جيران خير.**

. لا تحدث نزاعات بين الجيران أحياناً؟

تسألها إيريلا. فتجيبها بوران مبتسمة: ـــ لا تحدث أبدا نزاعات بيننا وبين المسلمين. نحن نعيش بسلام في الحارة الكبيرة. قالت إيريلا في نفسها: كان أبي على صواب، حين قال إن جربة هي المكان الذي سيعيش فيه آخر اليهود في العالم"[xxv].

يتبدى لنا بلحاظ ما رصدنا أن هناك نوع من الألفة والحميمية وعلاقات جيرة متآلفة توحي بالتعايش السلمي الواقع بين الخليط الساكن في هذه المدينة من المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى، فتمثل المكان بوصفه أليفاً،

وتجاوز أن يكون هو والآخر معادياً لهم، مما جعل المضـــطهدين يلاحظون في جربة **"المكان الذي ســـيعيش فيه آخر اليهود في العالم"**. وأشــار في نص آخر مؤكداً على هذا الغيتو وهو يحمل بعداً اجتماعياً إيجابياً وآمناً لهم من الاضـــطهاد النفسي والاجتماعي والثقافي الذي يعانونه من الاختلاط، فتبدت رغبات ملحة للالتحاق بالساكنين فيها، وراح العم يفصح عن رغبته لابن أخيه في حوار دائر بينهما، لأنه يرى في الأمكنة الأخرى من تونس معادية لهم، فقال الســـارد:**"حتى عمه يرغب في الالتحاق بما تزلياه في جربة مع بناته الثلاث. هو يقول إنه لا يرى مستقبلاً لليهود بعيدا عن جربة:**

.سيأتي يوم يا موسى، ولن يجد اليهود ملاذا لهم سوى جربة.

وماذا سيحدث لإسرائيل؟

ــ ستصبح دولة للعلمانيين، ولن يبقى أثر لليهود سوى ما يدرسه الطلاب فيها عن تاريخ الأديان"(xxvi). يضعنا النص المسرـــود أمام رغبة العم في الهجرة والانتقال إلى جربة مع بناته الثلاثة، انطلاقاً من نظرة تنبؤية مســـتقبلية اســتشرـافية تكشـف عن مجهولية المصـير الذي ينتظر اليهود، وبالفعل خلت مدينة سـوسـة من جميع اليهود، سـوى يعقوب الأحمر"**لم يبق من اليهود في المدينة العتيقة بسوسة، بعد خروج إيريلا وموسى منها، سوى يعقوب الأحمر. كان يخرج كل صـــباح من مســـكنه، ويطوف حول حوانيت اليهود المغلقة، وأحياناً يبدأ في قرع باب بيت المالح، وينادي بصـــوت عال: شـــانا توفا... شـــانا توفا"**(xxvii). إن فعل الخلو ناتج من عدم حرية اليهود في اختيار المســـكن أو الإقامة، ونقص في البحث عن أماكن عيش آمنة وبديلة يتملكها، فتمنح ســـاكنيها العيش مع ثقافات مختلفة وأصـــول متنوعة ممن يعيشـــون معهم، لذا راح يســـتفهم عن حالهم كيف ســـيكون بعد حيناً من الدهر بعد عزلهم؟ فيتنبأ الآخر بمصـيرها العلماني، وتحول اليهودية إلى درس ضـمن تاريخ الأديان، وكأنها تنصـهر وتذوب، للتحول إلى دولة معلمنة. ولا تسـاورنا الدهشـة مما حصـل ويحصـل للأقليات من اضـطهاد وعنف وإبادة مجتناة بحقهم بسـبب الركون إلى الجانب الحيواني عند الإنسان فنجد صور الوحشية في التعامل والخشونة في الطباع والاستهتار بأرواح الأقليات، لتمتثل في صورة الاضطهاد. وهذا ما نلمس مصاديقه في نصوص سردية من الرواية، إذ يسرد عمه ما حصل للمقابر من اضطهاد آخر، فقال العم إيلي: "**.حتى مقابرنا دُنّست يا موسى.**

.أمس وجدت كومة براز على عتبة الكنيس"(xxviii).

يطلعنا النص المسرـود على ثمة إشــارات أو ســلوك تســم شــكل العاطفة ومدتها وحدتها وتعبيراتها الشــفهية والإيمائية والحركية، وكيف ينفلت الجســـد عن تحكمه في عواطفه أحياناً، نتيجة الكبت الخارجي للجســـد، فيأتي سلوك(البصـق، والتبول والتغوط والتجشـؤ...)(xxix)، ويتم ممارسـتها في لا مبالاة تامة ضـد الآخر، إن القيام بفعل التغوط على عتبة الكنيس أو تدنيس المقابر سلوك غير متوقع وبغيض، ويحدث صدمة واستغراباً، لأن هذه الإشارات والسلوكات لا تكتفي بتحديد الفعل فقط؛ بل تعطي الأمر من دون صيغة آمرية آنية أو مستقبلية لسلوكات اضطهادية أخرى، علاوة على ذلك عدم اكتفاء هذه الإشـارات بتحديد الفعل النوعي، فقد يمارس عليهم سـلوكاً أو طقسـاً معيناً، لكنه يضـمر إباحة سـلوكيات اضـطهادية عنفية قمعية أخرى، إذن هي دعوة للممارسـات وإشـارات أخرى أكثر اضـطهاداً، وحينها ندرك ما تسـاهم به هذه المظاهر الجسـدية من تعميق في شـعور الاضـطهاد والكره والحقد بين الطرفين، فهم يضـمرون نوايا غير حسنة ومؤذية تمارس بغية الإيذاء والتشفي منهم، فيفتقد التعايش السلمي واللطف، وتتبخر مشاعر الود وسلطة العقل، وتتحكم العواطف للقيام بسـلوكات أكثر إيذاءً للطرف المضـطهد، وهو يحاول بشـتى الطرق الحفاظ على كرامته وهويته وذاته.

انتقل بنا السـارد إلى صـورة موحية بالاضـطهاد والعنف المعولم والإحسـاس بالظلم في ممارسـات (التهجير والترحيل) لليهود كسياسة منتهجة معهم، بغية القضاء عليهم وتشتيتهم وتفريقهم، فأخذ يصف حال من هاجر ومن بقي مضطراً في بلاده، قائلاً: "**عندما تهاجر اللقالق، تبقى المريضة منها والمتعبة والهرمة التي لا تقدر أجنحتها الثقيلة على شـق هواء البحر البارد والغيوم والضـباب، تلتصـق بأشـجارها التي ولدت بين جذوعها العالية، وتراقب الأسراب المهاجرة الشـابة بعيون حزينة. في سـتينيات القرن العشرين، حين هاجر آلاف اليهود من تونس إلى فرنسـا، ومنها هاجر إلى الكثير إلى إسرائيل. بقي بعض العجائز المتشـبثين بمنازلهم ومعابدهم ودكاكينهم ومقابر أحبتهم، وبقي معهم أطفالهم المخلصـون**"[xxx]. يصـف النص السردي كيف ضربت أعاصـير الاضـطهاد الأقليات والطوائف الأخرى المنتشـرين في جميع البلدان، فكانت واحدة من الميكانزمات الاضـطهادية هو التشـتت، فنجد الكثير ممن هاجر إلى فلسطين أو أوربا ليجدوا لهم مكاناً آمناً، وأغلبهم من الشباب، فما حصل لهم هو ميل اليهود للنجاة بأنفسهم، فقد يكونوا ضحايا الإبادة أو المحارق والتجويع وغيرها، وتخلّف عن الهجرة "كبار السـن والمرضى والمتعبين، ومن لا يطيق الابتعاد بسـبب تعلقه الشـديد بالوطن الذي يعيش فيه"، اسـتبعدت هذه الفئات من الهجرة والانتقال لأنها تقيد حركتهم في السفر، أو الانتماء إلى أسر مهاجرة أو طوائف أخرى ممن ينتقلون لهم، أو قد يتعودون على نمط أو أسلوب حياتي يختلف عما اعتادوه عليه مسبقاً، ويصعب عليهم التأقلم أو التعايش، مما أنكر هذا الاضطهاد القمعي الاجتماعي حريتهم الثقافية والاجتماعية، وانتهك حريتهم بسبب من سطوة عدم الانسجام والتآلف الاجتماعي الذي يجعل من الصعب على جماعة اليهود المهاجرين والمشتتين اختيار أساليب عيشهم، فيفضلون البقاء. كانت السياسات المتبعة معهم أكثر توحشاً، وهذا التشـتت من جانبه السـلبي. ويمكننا القبض على الجانب الإيجابي الآخر المضـمر من هذا الميكانزم الاضـطهادي"الهجرة والتخفي والاختباء من نار الاضـطهاد"، يمكن أن يكون مقروناً بمد رقعة وجودهم وانتشـارهم، فهناك من قبل وتحمّل مجابهة الاضـطهاد، تتحمل الذات الألم والعزل والموت الفردي، ومنهم من يحاول إخراج الأبناء والبنات من بؤرة الأحداث الاضـطهادية. فـ"**كانوا يودعون أبناءهم إلى أوربا بقلوب باكية، لكن فراق مثمر خير من أنس معذب. لا مسـتقبل لأبنائهم في بلد يعتبرهم مواطنين ناقصين.**" [xxxi]. إن صدمة التعامل اللا إنساني معهم جعلتهم يستسلمون لغطرسة واضطهاد الآخر، فهم يخشون مزاجهم السياسي السيئ، فكان من الأفضل تسفير الأبناء بخنوع لإرادة السلطات والحكومات، وعلى ما يتضح أنهم لم يحلموا بأي شيء سوى الحفاظ عليهم وتخليصهم من أغلال الاضطهاد والتحيز الديني، فأصبحت نفسياتهم متأثرة ونشاطاتهم وممارساتهم بنوع من القوى الاضطهادية المتوالية أو الحواجز المفتعلة، الهادفة إلى حرمانه وحجزه تخوفاً من وجوده، إذن هي أجزاء من بنية أكبر تهدف إلى تضـييق الخناق عليهم، وترحيلهم قسرياً، أو تهجيرهم، وإخلاء المكان للآخر المختلف واحتلاله.

فعدم تجوال اليهودي في تونس بحرية كبيرة واختياره لأماكن العيش يولد إحساساً بالغربة والاغتراب فهو حرمان وإحباط وإيذاء للآخر المختلف عنه بصـورة غير معلنة أو عدم التعامل معهم كشـركاء في الوطن، وتهجيرهم اختيارياً أو قسرياً، سلوكيات وممارسات اضطهادية أنبنت على التحيز الديني والسياسي، وكأن هذا العزل البيئوي هو حاجز لحد نشاطاتهم، وهو فعل مخطط ومقصود من قبل الآخر المضطهد لهم كحماية وضمان الأحقية الأغلبية العقدية، ففي هذا المكان يعد الحاجز بنية اضطهادية للقابعين في تلك الأحياء العنصرية وتتم معاملتهم كنفايات بشرية.

من الآليات الاضـطهادية التي عرض لها النص الروائي تتمثل بتقييد حرياتهم والقضـاء على إمكانية الزواج والاختلاط بغير اليهودي/ة، ولاشـك أن المجتمعات كلها تتحفظ على الزواج من اليهودي/ة، وتعد من الممنوعات

والمحظورات. وهذا التشـدد الذي ترتفع مناسـيبه أو تنخفض يعد اضـطهاداً[xxxii]. وشـكل حاجزاً آخر من التقييد والعزل والمنع، يتقصدونه كسياسة لانقراض النسل والإبادة، ونلج النص الروائي للإمساك بما يسند عرضنا هذا، ففي حوارية بين العمة إيديرا والعم إيلي مصداقاً لتلك الآلية الاضطهادية: "**لقد كبرت بناتك يا إيلي، ولم تقدر على تزويج واحدة منهن، ومن أين لهن بعرســان طيبين من أبناء إســحاق الخالصــين؟. أنا الذي جنيت عليهن، وتركتهن بعيدات عن أبناء عمومتهن من الشباب اليهود الطيبين، ورفضت تزويجهن للأغيار.**"[xxxiii]، نظراً لحظر التزويج والتبادل وانسجاماً مع المفروض والحظر، ولابد أن يتقيد الطرفين بهذا المنع، نتجت بعض المشكلات ومنها "العنوسة"، التي حصلت بسبب هجرة بعض الأبناء، أو رفضــهم لتزويجهم الأغيار. يبين هذا النص طبيعة العلاقات الاجتماعية والحياتية بين اليهود والمســلمين والطوائف الأخرى، وننظر لعدم التزويج لا يزيد عن كونه مثالاً آخر للإبادة، وتحقيق أقصى حد من فاعلية عدم الاختلاط بين الأديان والطوائف، ويحيل نصاً آخر من الرواية إلى أن: "**هذا الوطن لا يزوجه من حبيبته التي عشقها لأنه يهودي. هذا الوطن يرغمه على دراسة دين لا يؤمن به**"[xxxiv]. يتضح من النص صعوبة الزواج من حبيبة مختلفة عقدياً، فهو يعيش في وطن يحرم ويقمع الرغبات، ويحدد العلاقات الاجتماعية ويضعضعها، مما يجعلهم بيئة اجتماعية متقوقعة منغلقة على بعضها منقطعة التواصل. فضلاً على إرغامهم على دراسة دين غير دينهم، وهذه مشكلة أخرى تواجههم.

وفي نص آخر دلف الســارد إلى الفصــح عن حالة إيليرازا، وهي تبدي رغبتها في الزواج من يهودي قائلة:"**تمنيت ككل فتاة يهودية أن أتزوج يهوديا صالحا، لكن لا نصيب لنا في ذلك. منذ عشرين سنة**"[xxxv]. جرت المساعي لتزويجها من غير اليهود المسمى بالسبتي والملقب بـــ(الشباتي)، وحوَّل ديانته والتزم بوصايا نوح السبع نزولاً عند رغبتها، لكنه كان زواجاً شكلياً وانفصلا بعد أيام من زواجهما بسبب اتهامه بمقتل اليهودي رابط الأسد، الذي لم يكن له يداً فيه. في فعلي التحوَّل والقبول والزواج الشكلي تأكيداً يدعو إلى تضامن الطوائف والشرائح الاجتماعية على صعيد التواصل الاجتماعي الحياتي رغم الصــعوبة والإهانات التي يتلقاها أثناء التبادل المحادثاتي، فالتوتر موجود بين الطوائف، ويبدو أن محاولات إيريلا وموسى رسائل ملموسة للتصالح والتعايش والتواصل، لأنه في الحقيقة هناك سعي لتجاوز ذلك الحظر الاجتماعي، وما نتلمسه مما تقدم من تلك النماذج الأمثلة الاضطهادية استدلالية يتلمسها القارئ هنا وهناك في الرواية، هدف محدد للفصح عن آليات اضطهادية مخفية تمارس، وقد يتجنب الروائي سردها، فيكتفي بما مسرود ليستدل القارئ انطلاقاً من النص، وتأويله الذي ينبغي فهمه، ونوع من إلزام القارئ للكشف عن آليات أخرى. فراح السارد يعرض لها ودخل (**اللعب والأكل والشرب...**) بوصفه حاجزاً اجتماعياً آخر صممه المجتمع خوفاً منهم، ويصعب التعامل معهم، مما شكَّل حاجزاً نفسياً لقوى اضطهادية قاسية وضغوطات قائمة في ثقافة الأغلبية واقتصاد سلوكي منتهج يحكم به الأطفال والكبار والجيران...، فهي ثقافة اجتماعية شــائعة بين الناس بعد التقرب والتماس والتعاطي معهم لاختلافهم العقدي، إذن هي تقييدات اجتماعية نفسية مغلفة بالدين وسياسة منتهجة لاضطهادهم وعزلهم، بالنهاية تصب لمصلحة الأغلبية الدينية المؤدلجة بإبعاد الأقليات وإبقائهم تحت السيطرة والإقصاء. هناك نص من الرواية ينقلنا إلى هذا الاضــطهاد النفسي والاجتماعي، فقال الســارد: "**يأمرنهم بألا يخالطوا الصــبي اليهودي، إلا الخالة فاطمة كانت تعامله كما تعامل ابنها خالدا، وكانت تدافع عنه أمام جاراتها، وتقول لهن:" السمويل (هكذا كانت تنطق اسم صموئيل) أجمل من أولادكن".**

قالت لها جارتها المعلمة ذات يوم:

. هذا الصبي اليهودي سيكبر وسيصبح جنديا في إسرائيل، ويقتل إخوتنا في فلسطين.

فأجابتها، وهي تشتم إسرائيل والعرب:

. السمويل لا يقتل حتى فرخ دجاج. سيصبح طبيبا مثل أبيه"[xxxvi].

هذا المشهد الحواري المسترجع الذي استجلبته ذاكرة موسى من الطفولة، يحيل إلى مشهد واقعي عايشه الكثير من أبناء اليهود، فثمة أصوات في النص المسرود تعبر عن نفسها أثناء الملفوظية، فالنص يحيل إلى وجود متخاطبين حاضرين؛ أي منتجيه ــ المتكلم والمخاطب، وها نحن إزاء (النسوة، والخالة فاطمة، والجارة المعلمة، وموسى)، إذ في أمر الجيران بعدم الاختلاط مع أبناء اليهود وتصريح المعلمة، أدى إلى إجابة الخالة بنبرة الشتيمة والسب للطرفين، فالشتيمة ليست في الطريقة التي تمت بها، بل بمقدار ما تكون في الطريقة التي تتلقى بها[xxxvii]، فقالت: **(السمويل لا يقتل حتى فرخ دجاج. سيصبح طبيبا مثل أبيه)** ففي قول الخالة فاطمة فعلين متلازمين هو تبرئته من فعل القتل، وأنه سيصبح طبيباً، فهي تتأمل باستشرافها للمستقبل بأنه طبيباً، لأنه مقرون بمهنة أبيه وهو إنسان مسالم فلا يمكن أن يصبح قاتلاً، فترك هذا التعامل الاضطهادي أثره على النفس والذاكرة والصدور، يبوح هذا التداخل بين الماضي والحاضر عن المؤثرات النفسية المتراكمة التي تعانيها الأقليات، فمنذ طفولته وهو يعيش التمييز العنصري والظلم، وما زال، يعيش التشكيك بوطنيته وولائه، فضلاً عن المواقف والذكريات الكثيرة التي تختزنها الذاكرة، فـ**"حين يتصفح الصور والأحداث التي مرت به في المدينة العتيقة، وخارج أسوارها العالية، ويتمعن في تفاصيلها التي تخلق الكراهية والأحقاد العنصرية، وكل المشاعر المسمومة التي يكنّها له أغلب سكان المدينة، لا يجد سببا واحدا تركه يتمسك بالبقاء في المدينة غير كلمات الخالة فاطمة والمخطوطات الذهبية في كنيس أبي جعفر"**[xxxviii]. عزز هذا النص ممارسة الفعل الاضطهادي والكراهية والأحقاد العنصرية والظلم ضدهم، والبحث عن فرصة نجاة بالنفس ليجدوا فرصة أخرى للعيش والتخالط الاجتماعي في فضاءات أخرى، وتعيش الذات صراعاً بين البقاء والهجرة، فهو لا يتمسك بها ولا يعود لولا المعاملة الحسنة من الخالة فاطمة ووجود المخطوطات. فما مر به قديماً وحديثاً وداخل وخارج الفضاء الاجتماعي يحيلان القارئ إلى حالات: خطورة تواجدهم واختلاطهم وهشاشة الروابط بين بني البشر، لذا يكون الغيتو نافعاً لهم بوصفه حماية وملاذاً، والعلاقات بينهم يسودها الحقد والكره والاضطهاد والاستبعاد والإبادة... تحيل إلى هشاشة مزمنة في المواقف الاجتماعية كما يصفها باومان، فمن الطبيعي صعوبة العيش والتأقلم، فيضطر القارئ أن يرى في هذه المعاملة تطرفاً، لأنها تنبئ عن تفوق الغريزة الحيوانية في التعامل مع المختلف، وإعادة تكوين تطورية لأحداث اضطهادية عنفية أخرى تضاف لمعاناتهم، إذن لم تحتكر الدولة العنف مع هذه الأقليات فقط، بل تولدت عنه ممارسات اضطهادية محسوسة للعلاقات الاجتماعية بين الطرفين، مما أدى إلى تصاعد النزاعات والتوترات والكراهية التي مرت بضرورة المواجهة الجسمانية واللفظية بين الجماعات والأفراد، وأضحت تلك الفئات مقموعة مضطهدة ومهمشة ومعزولة مبدئياً، ولاسيما أن الدولة والقانون وفرا الوسائل الكفيلة للقيام بذلك الدور، وزج الفرد، في حمى الاضطهاد الذي يأتيه من جميع الأطراف، أضحت الأقلية اليهودية خاضعة لعدوانيات الآخر، وفي المقابل هو يكتم غرائزه التي تندفع لاستعمال معتدل للحقد والكراهية وللغضب والعنف.

في ظل هشاشة العلاقات والروابط بين الطوائف والأقليات والديانات، فمن المتوقع أن يمسك القارئ بتمثلات اضطهادية أخرى يفصح عنها النص الروائي، فتجلى لنا مثالاً آخر في طقوس العزاء والفرح، هي أنشطة اجتماعية وأشكال تواصلية متشكلة من خلال أفكار ومؤثرات متمايزة ومستقرة لثقافة معينة، تحاول أن تصمد، ولكنها بمرور الوقت قد تتمازج وقد تقترض من بعضها، فتتشكل نتيجة الهجرة أو الغزو أو العولمة، وهكذا يصعب الحفاظ على الطقسنة داخل

الثقافة وداخل الحدود الإقليمية، ولاسيما هجرات اليهود المتنوعة وكثرة تنقلاتهم وترحيلهم، وتعرضهم لتدفقات ثقافية أخرى ولتمزيق الطقسنة المستقرة الماضية، فتصبح قابلة للاختراق والتحديث، لكن على الرغم من فعل التشتيت الاضطهادي الذي تعانيه هذه الفئة، إلا أنهم يشتكون من عزلهم وعزلتهم وتحييدهم في تلك الطقسنة، ويرونه من جانب آخر حاجزاً يحمي تصنيف طقوسهم وأعمالهم من التداخل الثقافي فيطرأ عليها اغتراباً ثقافياً. "**يكن موسى ليعقوب الأحمر احتراما خاصا، فهو من أكثر اليهود تمسّكا بعادات الأجداد، وهو يقيم في العالم بالتقويم اليهودي، في أواخر سبتمبر من كل سنة ميلادية، يحتفل برأس السنة العبرية، فيأكل التفاح المغموس في العسل، وينفخ في الشوفاز الذي يعلقه على جدار بيته، ويرمي قطع الخبز في البحر وهو يرتل التوراة...**"[xxxix]. يبدي النص المسرود مدى تمسك اليهود بطقوسهم وعاداتهم، فيعرض للاحتفال برأس السنة العبرية، ويستعرض لآلية الاحتفال وما يجهز له من ترتيبات، فهو من جانب وانسحاب للأنماط الطقسية المستقرة لما فيها من شعور الأمان والجوانب المجتمعية هو أحياء وتأكيد الجوانب العرقية ــ الثقافية[xl]، وهذا النشاط شكل من أشكال النشاط العنصري الذي يسمح ببناء شكل من إعادة البناء الاجتماعي والهروب إلى الفردانية الانعزالية، فالتوجه إلى الداخل للاحتماء. ولو نصطبر قليلاً عند سردنا لصيغ وآليات الاضطهاد التي لاحقناها في النص المسرود، لا يمكن إغفال ردود الفعل التي انتهجوها اليهود من حيث الحفاظ والتمسك في إقامة طقوسهم وفرائضهم وإصرارهم على وجودهم في بيئاتهم رغم المضايقات المعلنة والمخفية، ورغم الرفض السياسي والاجتماعي والثقافي...، فالصلوات والطقوس والاحتفالات والمآتم هي قوة يجابهون بها لهب الاضطهاد المستعر، لما تؤديه تلك العادات والطقوس والفرائض من ذهاب وطرد للخوف وتقوية شعورهم بأهمية بقاء دينهم ووجودهم، فيرى فيها صموداً أمام أي إعصار اضطهادي مهما تنوعت الأعاصير.

إن التركيز على الفظائع المرعبة والآثام الماضية والحالية والبؤس البشري الذي تعيشه الفئات المقصية تجعل الآخر ماثلاً أمام المستقبل وعليه الصد والركون عن الماضي/التاريخ، فلابد من الانسحاب؛ بل الدفع بهم إلى مشاهد الألم والبؤس الذي لحق بهم بسبب الماضي، وتركيز أعين الطرفين عليه جعلتهم يحيدون عن المستقبل، لذلك لم يتمكنوا من رؤية المستقبل أو حتى تخيله، فلم يكونوا مستعدين للتسامح عن جميع ما حصل لهم، وهذا ما يثبت أن كلاهما مثقل بماضيه، ولم يخرجوا من مستنقع الكراهية والريبة والخيانة المتبادلة الواقعة بسبب العدائية التي استمرت لقرون وولدت من المشاعر الأيديولوجية[xli].

الخاتمة

يدلنا التجوال البحثي في هذا النص الروائي على توافر أنواع الاضطهاد المحيل على أسلبة الفرد المختلف عقائدياً وجعله في خانة المنبوذ اجتماعياً والناقص سياسياً والمستبعد دينياً ويعامل حاله حال النفايات البشرية، لذا راحت تلاقي الأقليات اهتماماً كبيراً في وقتنا الراهن دولياً وإقليمياً وإعلامياً، بحكم ما تعرضوا له من اضطهاد وتعسف وظلم أشعرهم بالإهانة والغضب جراء السلوكات اللا إنسانية باختلاف الأسباب والوسائل. وكشفت المدونة الروائية للروائي كيف جندت مساعي الجهات والمجتمعات لاستغلال الأفضلية وأدلجتها بغية تهميش؛ بل تغييب من الخطاب، وكيف سخرت الخطابات السياسية والدينية والإعلامية في تجذير وتعبئة وهيمنة الفكر الواحدي ونبذ الفكر التعددي، فضلاً عن فضح الخطابات المحملة بازدواجية وتناقض واضحين.

المصادر والمراجع

[i] ينظر: مقارنة الأديان اليهودية، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط12، 1997: 36/1.

[ii] ينظر: نفسه:1/ 102، 103.

[iii] ينظر: إشكالية الاضطهاد في رواية "جاهلية" لليلى الجهني(دراسة تحليلية) للبنية السردية) د. سناء طاهر الجمالي، مجلة البحث العلمي في الآداب (اللغات وآدابها)، المجلد 23، ع 7، 2022: 15.

[iv] ينظر: الأقليات والاضطهاد مابين مطرقة التوظيف السياسي وسندان جدلية المفاهيم، سوار مصطفى كميل، المركز الديمقراطي العربي، الشرق الأوسط، العربي، 28/ أبريل 2022.

[v] ينظر: أرواح مهدورة الحداثة والمنبوذون منها، زيجمونت باومان، تر: محمود أحمد عبد الله، شهريار، البصرة، العراق، ط1، 2022 :48 .

[vi] ينظر: نفسه:44، 45.

[vii] ينظر: الاضطهاد في الكنيسة رحلة الألم والمجد في كنيسة الرسل، سارافيم البرموسي، مراجعة: نيافة أبنا يسيذورس، مدرسة الإسكندرية، مصر، ط1، 2016: 73.

[viii] ينظر: أرواح مهدورة الحداثة والمنبوذون منها: 46، 47.

[ix] ينظر: الأقليات والاضطهاد ما بين مطرقة التوظيف السياسي وسندان جدلية المفاهيم، سِوار مصطفى كميل، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، الشرق الأوسط، 28 أبريل 2022.

[x] ينظر: نفسه : 75.

[xi] ينظر: الأقليات والاضطهاد ما بين مطرقة التوظيف السياسي وسندان جدلية المفاهيم، سِوار مصطفى كميل، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، الشرق الأوسط، 28 أبريل 2022.

[xii] ينظر: الأقليات والاضطهاد ما بين مطرقة التوظيف السياسي وسندان جدلية المفاهيم، سِوار مصطفى كميل، المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والاقتصادية والسياسية، الشرق الأوسط، 28 أبريل 2022.

[xiii] فن الحياة، زيجمونت باومان، تر: محمود أحمد عبد الله، شهريار، بغداد ، العراق، ط1، 2023 : 67.

[xiv] ينظر: الأصولية والعلمانية، مراد وهبه، دار الثقافة، القاهرة، ط1، 1990: 40.

[xv] ينظر: اضطهاد النساء، مارلين فري، تر: شهد إسماعيل حسين، مجلة الحكمة، 1983، مقال منشور من الكتاب، 10/ 8/ 2017.

[xvi] ينظر: أرواح مهدورة:117، 118.

[xvii] اليوم جمعة وغدا خميس، سفيان رجب، أركاديا، أريانة المدينة، تونس، ط1، 2022: 11.

[xviii] نفسه:65.

[xix] نفسه: 35.

[xx] ينظر: مقارنة الأديان اليهودية: 272/1.

[xxi] اليوم جمعة وغدا خميس: 35.

[xxii] نفسه:64.

[xxiii] نفسه:82، 83.

[xxiv] نفسه:105.

[xxv] نفسه: 244.

[xxvi] نفسه: 14. ينظر:136، 137.

[xxvii] نفسه:326.

[xxviii] نفسه:89.

[xxix] أنثروبولوجيا العواطف الوجود عاطفياً في العالم، دافيد لوبروطون، تر: فريد الزاهي، المركز الثقافي للكتاب، الدار البيضاء، المغرب، بيروت، لبنان، ط1، 2023: 56.

[xxx] اليوم جمعة وغدا خميس: 90.

[xxxi] نفسه: 90.

[xxxii] ينظر: الإنسان دراسة في النوع والحضارة، محمد رياض، مؤسسة هنداوي، المملكة المتحدة، ط1، 2014: 192.

[xxxiii] اليوم جمعة وغداً خميس: 23.

[xxxiv] نفسه:64. ينظر:59،58 ،62،61، 225.

[xxxv] نفسه:149.

[xxxvi] نفسه:64.

[xxxvii] ينظر: أنثربولوجيا العواطف: 28.

[xxxviii] نفسه:64.

[xxxix] نفسه: 15. 16.

[xl] ينظر: نحو فهم للعولمة الثقافية، پول هوپر، تر: طلعت الشايب، المركز القومي للترجمة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1، 2011: 186.

[xli] ينظر: فن الحياة: 76. 77.